بشار بن برد

(٢)

وصفه :

وجيش كجُنْح الليل يزحف بالحصَى ... وبالشوك والخَطّىّ حُمْرٌ ثعالبُهْ
غدونا له والشمس فى خِدر امها ... تطالعنا ، والطلُّ لم يجر ذائبُهْ
بضربٍ يذوق الموت من ذاق طعمه ... وتدرك من نحّى الفرار مثالبُهْ
كأن مُثار النقع فوق رءوسنا ... وأسيافنَا ليلٌ تهاوَى كواكبُهْ
بعثنا لهم موتَ الفُجاءة ، اننا ... بنو الموت خفّاقٌ علينا سبائبُهْ
فراحوا فريقٌ فى الاسار ومثله ... قتيلٌ ومثلٌ لاذ بالبحر هاربُهْ
اذا الملكُ الجبار صعّر خدَّه ... مشينا اليه بالسيوف نعاتبُهْ

قد يحملنا بشار على تصديقه فيما أشار به بقصيدته السالفة الذكر وفى قوله :

اذا ما غضبنا غضبة مضرية ... هتكنا حجاب الشمس او قطرت دما
اذا ما أعرنا سيّداً من قبيلة ... ذرا منبرٍ صلّى علينا وسلما

ولكن لو علمنا انه كان جبانا رعديداً متردداً يخاف السيف ويخشى السوط ويرهب الناس ، وانه هجا مرة روحاً بن حاتم فأنذره فلم يخشه فأقسم روح أن يضربه بالسيف اذا رآه حتى لو كان فى حضرة الخليفة،فلما سمع بشار استجار بالمهدى فأجاره وسأل روحاً فقال انه أقسم ولن يحيس بقسمه فافتى الفقهاء بأن يضربه بعرض سيفه ففعل فكان بشار يصيح مستجيراً مستطار اللب مضطرب الفؤاد ولو علمنا انه دخل مرة الى ابراهيم بن عبدالله فأنشده قصيدة يهجو فيها المنصور فلما قتل ابراهيم خاف بشار فغير فى قصيدته وبدل وحذف منها أبياتاً وجعل أولها :

أبا مسلمٍ ما طولُ عيشٍ بدائمٍ ولا سالمٌ عما قليلٍ بسالمِ

بدلاً من « أبا جعفر ما طول عيش بدائم » . لو علمنا كل ذلك وهو قل من كثر لأيقنّا ان بشاراً لم يكن صادقاً فى مدحه ورثائه بقدر ما كان صادقاً فى هجائه، ولاعترفنا بأن بشاراً « كان أسداً علىّ وفى الحروب نعامة » وان أكثر الناس تظاهراً بالشجاعة أكبرهم جبناً وأعظمهم خوراً وأضعفهم حيلة .

وله فى صفة الصديق :

خيرُ اخوانك المشارك فى المُرِّ وأين الصديق فى المُرِّ أينَا ؟
الذى إن شهدت سرك فى الحىِّ وإن غبت كان أذناً وعينَا
مثل سر الياقوت إن مسَّه النار جلاه البلاء فازداد زينَا
أنتَ فى معشر اذا غبتَ عنهم بدّلوا كل ما يزينك شينَا
واذا ما رأوك قالوا جميعاً : أنت من أكرم البرايا علينا
ما أرى للأنام وداً صحيحاً صار وُدُّ الأنام زوراً ومينَا

هـذه ناحية من فلسفة التشاؤم فى شعر بشار ترينا كيف ضاق بالناس ذرعاً وتشعرنا بأن المستحيل ثلاثة منها الخل الوفى ، وتعلمنا كيف نضبت شرعة الوفاء فى عصره وكيف أذوت سموم الأثرة زهرة الاخلاص فى عهده . واذا كان بشار الذى قدره الناس حق قدره وأجزلوا له العطاء على شعره يقول هذا القول فى حق معاصريه الأوفياء فكيف به اذا عاش فى زمننا هذا فى عصر المادة والتباغض والتنافس وفى عهد يغمط فيه حق الأديب وينكر فيه فضل الشاعر ويجحد فيه قدر الفنان ويكفر فيه بنعمة العرفان وتتغلغل فيه روح الأثرة ويكثر فيه الرياء ويقل فيه الوفاء . ورب قائل يقول: ان لزاماً علينا أن ندعو لفلسفة التفاؤل لا التشاؤم ، ولكنى أقول تعالوا الى كلمة سواء بيننا وابحثوا معى على ضوء الصراحة عن الصديق الوفى ، فتشوا عنه تجدوه فاذا رأيتموه حكمتم عليه بأنه سليم النية ، ولكن كم من الأصدقاء تفنى شخصية كل منهم تفانياً فى محبة صديقه ؟ رحم الله جحا لو عاش لعدّ غنمه، ورحم الله بشاراً فقد شعر بشعورنا وعبر عمّا فى نفوسنا . وأين هم الأصدقاء الذين قال عنهم سقراط « صديق واحد خير عندى من هذه الدنيا بأسرها » ؟ يميناً لو وجده سقراط لما تمنى هذه الأمنية، والتمنى أبعد منالاً من الرجاء . هذا بعض ما وصل الينا من روائع آيات بشار فى المدح والحكم والوصف .

فخره : أما الفخر فقد سأله المهدى لما دخل عليه فقال له : فيمن تعتد يا بشار ؟ قال : أما اللسان والزىّ فعربيان ، وأما الأصل فعجمىّ كما قلتُ فى شعرى :

وُنبِّئتُ قوماً بهم جِنَّةٌ يقولون : مَنْ ذا ؟ وكنتُ العلَمْ
الا أيها السائلى جاهداً ليعرفنى : أنا أنف الكرمْ
نَمَتْ فى الكرام بنى عامرٍ فروعى وأصلى قريش العجمْ
فانى لأغنى مقام الفتى وأصبى الفتاة فما تعتصمْ

الا أن بشاراً كان شديد التعصب للعجم ولا عجب فمن « فات قديمه تاه » وكان بشار يضمر الزندقة ويزعم أن الأمة الاسلامية كفرت بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم ، ولما سئل عن سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال ما قاله عمرو بن كلثوم :

وما شر الثلاثة أمَّ عمرو بصاحبك الذى لا تصبحينا

وكان يرى رأى أبليس فى أن النار أفضل من الطين ، وهو القائل :

الأرض مظلمةٌ والنارُ مشرقةٌ والنارُ معبودةٌ مذ كانت النارُ

وقال مفتخراً بذكائه :

عميت جنيناً والذكاء من العمى فجئت عجيب الظن للعلم موئلا
وغاض ضياء العين للعلم رافدا بقلب اذا ما ضيّع الناس حصّلا
وشعر كنور الأرض لاءمت بينه بقول إذا ما أحزن الشعر أسهلا

وما كان بشار ليقبل على نفسه أن يزّه غيره . سمع مرة عقبة بن رؤبة يعيره بعدم استطاعة بشار أن يقول رجزاً فأنشد ارجوزته التى منها:

يا طلل الحى بذات الصمد بالله خبر كيف كنت بعدى
أوحشت من دعد وترب دعد سقيا لأسماء ابنة الأشدّ
عهدى بها سقيا له من عهد تحلف وعداً وتفى بوعد
الحر يلحى والعصا للعبدِ وليس للملحف مثل الردّ

ان فى البيت الأخير لحكمة وان فيه لعظة وعبرة .

اعتذاره : ومن جيد ما قال فى الاعتذار وقد حدث ان رجلاً دعاه الى أكلة فى

منزله فأكل ، ولما نهض قامت جارية للرجل تقوده الى الباب، فلما صار بالصحن أومأ اليها ليقبلها — قبحه الله — فتركته جاعلة أذناً من طين وأخرى من عجين وجعلته وحيداً يتخبط خبط عشواء فخرج مولى الجارية وسأله عما به فأجاب انه ارتكب إثماً ولا بد أن يقول شعراً تائباً معتذراً، فقال :

أتوب اليك من السيئات ... واستغفر الله من فعلتى
تناولتُ ما لم أُردْ نيله ... على جهل أمرى وفى سكرتى
ووالله والله ما جئته ... لعمدٍ ولا كان من همتى
والا فتُّ اذاً ضائعاً ... وعذّبنى الله فى ميتتى
فمن نال خيراً على قبلةٍ ... فلا بارك الله فى قبلتى !

كرمه : كان بشار كريماً حقّاً ، وكان جواداً بطبعه . لم يكن يعبد المال بل كان مسماحاً متلافاً .

خليلىَّ ان العسر سوف يضيق ... وان يساراً فى غدٍ لخليقُ
وما كنت الا كالزمان اذا صحا ... صحوتُ ، وإن ماق الزمان أموقُ
وقد كنت لا أرضى بأدنى معيشة ... ولا يشتكى بخلاً علىَّ رقيقُ
خليلىَّ ! ان المال ليس بنافعٍ ... اذا لم ينل منه أخٌ وصديقُ
وما خاب بين الله والناس عاملٌ ... له فى التقى أو فى المحامد سوقُ
وما ضاق رزق الله عن متعففٍ ... ولكنّ أخلاق الرجال تضيقُ

رثاؤه : أما شعره فى الرثاء فكثير ، منه ما قال فى رثاء ابن له توفى :

أجارتَنا لا تجزعى وأنيبى ... أتانى من الموت المُطِلّ نصيبى
بُنىّ على رغمى وسُخطى رُزئته ... وبُدِّل أحجاراً وجال قليبِ
وكان كريحان الغصون تخاله ... ذوى بعد إشراق يَسرٌّ وطيبِ
أصيب بُنىَّ حين أورق غصنُه ... وألقى علىَّ الهمّ كلّ قريبِ
عجبت لاسراع المنية نحوه ... وما كان لو مُلِّيتُه بعجيبِ

وكان له خمسة ندماء ماتوا فرثاهم بقوله :

يا ابن مومى ما ذا يقول الأمامُ ... فى فتاةٍ بالقلب منها أوامُ ؟

يابن موسى اسقنى ودع عنك سلمى إن سلمى حِمَى وفىّ احتشامُ
رُبَّ كأس كالسلسبيل تعللت بها والعيون عنى نيامُ
وفتى يشرب المدامة بالمال ويمشى يروم ما لا يرامُ
تركته الصهباء يرنو بعين نام انسانها وليست تنامُ
جُنّ من شربة تُعَلّ بأخرى وبكى حين سار فيه المدامُ
كان لى صاحباً فأودى به الدهـ ـر وفارقته عليه السلامُ
بقى الناس بعد هلك ندامای وقوعاً لم يشعروا ما الكلامُ
يا ابن موسى فقد الحبيب على العين قذى فى الفؤاد منه سقامُ
كيف يصفو لى النعيم وحيداً والأخلاء فى المقابر هامُ
تقسّتهم علىّ أم المنايا فأنامتهمو بعنف فناموا

شعره الفكاهى : ولبشار شعر فكاهى كثير ومنه :

ربابة ربة البيتِ تصبّ الخلّ فى الزيتِ
لها عشر دجاجاتٍ وديك حسن الصوتِ

وجاء بشار يوماً حزيناً فسئل عما به فقال: «غلب حمارى» فمات، فرأيته فى المنام فسألته عن سبب موته وقد كنت أحسن اليه فقال :

سيدى خذ بى أتاناً عند باب الاصبهانى
تيّمتنى ببنانٍ وبدلٍّ قد شجانى
تيّمتنى يوم رحنا بثناياها الحسان !

هجوه : أحسب اننى أصيب كبد الحقيقة اذا قلت إن بشارا كان صادقاً فى هجوه إذ كان متشائماً متبرماً بالناس مسرفاً فى الحقد عليهم قاسياً فى هجائه فلم يعرف عصره رجلا أسرع منه الى هجر الحديث اذا هجا ولا أكثر منه ايثاراً لنفسه ولا أقدر منه تعسفاً اذا اغتاظ ولا أدرى منه بالأسلوب اللاذع .

بشار ودرايدن : كان بشار فى هجائه كالشاعر الانجليزى درايدن الذى عاش من سنة ١٦٣١ لغاية سنة ١٧٠٠، كلاهما هجّاء وكلاهما لاذع الاسلوب. أولهما هجا الوزير يعقوب بن داود وحماد عجرد وعبد الكريم بن أبى العوجاء ، وثانيهما هجا الوزير

شافتسبرى فى قصيدته ابسالوم واشيتوفل سنة (١٦٨١-١٦٨٢) متهماً اياه بأنه حرّض ابن شارل الثانى على الثورة ضد أبيه مضحّياً بالمصلحة العامة على مسرح المصلحة الشخصية، معرّضاً البلاد للفتنة والاضطراب، ثم شفع درايدن قصيدته بأخرى عنوانها «ماك فلكنو» يهجو فيها خصمه الشاعر شادويل حتى لم تقم للمهجو قائمة بعدها، وعززها بثالثة فى هجاء دوق باكنجهام.. أولهما يهجو هجاء مقذعاً والثانى يتهكم تهكماً لاذعاً. كان بشار فى قوة جسمه كالشاعر درايدن سواء بسواء وكان كلاهما متين اللفظ جزل الاسلوب. أولهما يهجو حبّاً فى الهجاء وازدراء بالناس، وثانيهما يتهكم تهكما لاذعاً بلا شفقة ولا رحمة ليعطينا رأياً عن موقف الأحزاب السياسية فى عهده. أولهما لا يتعمق فى اللفظ حتى يكون الهجاء فى متناول فهم الجميع، وثانيهما يتعرض للشخصيات بضخامة الاسلوب.

بشار وپوب: ويختلف بشار عن الشاعر الانجليزى پوب فى أن الثانى اشتهر بقصائده التهكمية اللاذعة فى فن التهكم الأخلاقى رغبة فى هدم الأخلاق السقيمة ومبتذل العادات بين الأفراد والجماعات فى قوة ابتكار وفصاحة وبلاغة تشهد بها قصيدته «اغتصاب خصلة الشعر» رغبة فى الصلح بين الآنسة ازابيلا فيرمور وصديقه اللورد بيتر. ولبشار فى ذم حماد هجاء مقذع إن قلته كنت من انصار الأدب المكشوف ولست منهم ولذا أضرب صفحاً عما قال. ومن هجائه قوله:

ربما يثقل الجليس وان كان خفيفاً فى كفة الميزان
كيف لا تحمل الأمانة أرضٌ حملت نوقها ابا سفيان ؟!

و من هجائه فى يعقوب بن داود وزير المهدى:

بنى أمية هبوا طال نومكمو ان الخليفة يعقوب بن داودِ
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الناى والعودِ!

فاتهمه عند المهدى بالزندقة ووشى به لديه فضرب بالسياط حتى مات، ولعلنا نطرب لشعره اذا سمعنا مناظراته فى الهجاء بينه وبين حماد عجرد، فقد كانا يتهارشان تهارش الديكة ويتماريان ويتجادلان كأنهما عدوان لدودان، فقد مرض حماد وضحك خبيث على بشار فأعلمه أنه مات فقال:

لو عاش حمادٌ لهوّنا به لكنه صار الى النارِ

فبلغ حماداً فى ثوب مرضه هذا البيت فقال :

يا ليتنى مت ولم أهجه نعم ولو صرتُ الى النار
وأى خزى هو أخزى لى من قولهم يا ساب بشار !

وقال بشار يهجو عبد الكريم بن أبى العوجاء :

قلت عبدالكريم يا ابن ابى العوجاء بعت الاسلام بالكفر موقا
لا تصلى ولا تصوم فان صمت فبعض النهار صوماً رقيقا

وقال يهجو هلالا وقد استثقله :

وكيف يخف لى بصرى وسمعى وحولى عسكران من النقال
قعوداً حول دسكرتى وعندى كأن لهم علىّ فضول مال
اذا ما شئت صبّحنى هلالٌ وأىّ الناس أثقل من هلال ؟!

ولو علم بشار انه صفيق الوجه وهو ككل شخص طويل اللسان لما اتهم غيره بالثقل الا اذا كان الثقل نسبياً يختلف باختلاف الذوق والمناسبة ووجهة النظر والميزان ! رحم الله بشاراً وحماداً رحمته بشهاب الدين وأخيه ! لقد بلغت الخصومة بينهما مبلغاً شائناً فسعى بشار بين حماد والأمين، ودسّ حماد على بشار وقديماً كان الحقد ولا يزال شوس القلوب، ومن نكد الدنيا على الانسان فى كل عهد وزمان أن يوجد من لا عمل له الا الايقاع بين الناس إما على مذهب فرق تسد ، واما اشباعاً لرغبات نفسية دنيئة ، فقد كان بالبصرة رجل ينقل لهذا مايقوله ذاك حتى اتصل بعلم بشار قول حماد :

وأعمى يشبهُ القردَ اذا ما عمّى القردُ !

فضحك بشار كأنه «قرد يقهقه أو عجوز تضحك» وصفق بيديه قائلاً : «والله ما أخطأ وقد صدق ، حسبك من شر سماعه، ما حيلتى يرانى فيشبّهنى ولا أراه فأشبّهه» ومن عجب أن يموت بشار فيجمعه وحماد رمسان متجاوران وهما الخصمان العنيدان ، ويشاء الله أن يكونا فى موتهما مؤتلفين متقاربين بعد أن كانا فى حياتهما مختلفين متباعدين .

غزله : ناحية من نواحى العظمة فى شعر بشار ، فقد كان مسرفاً فى التشبيب بالنساء

ونبغ فى الغزل الرقيق فلم يسبقه فيه سابق ونسج على منواله وعلى أساليب الطريقة الواقعية وعلى مذهب الـ Realiste كثير من الأدباء الفرنسيين وشعراء المدرسة الحديثة من المصريين ،ومن فحول شعرائها المجيدين أبو شادى وعبد الرحمن شكرى وناجى، ولكل منهم جهود جبارة تذكر لهم فتشكر .

لقد أحب بشار وتغزل فى النساء على الرغم من كونه أعمى دميم الخلقة ، فكان دقيق الخيال رقيق الشعور مغرماً بوصف الجمال . سمع بجمال عبدة فأحبها وأكثر من وصفها فهل كان صادقاً فى حبه ؟ يقولون إنه أحبها وانها مالت اليه وعطفت عليه إذ أطرى جمالها ، والغوانى يغرهن الثناء ، ولا أدرى كيف لم يكن قلبه وشعره وقفاً عليها ما دام قد أحبها الحب الصريح الا اذا كان ماجناً وشعره مغرياً بالفسوق وحُبه قلباً وقلبه هواء . ومن آياته فيها :

يزهدنى فى حب عبدة معشرٌ قلوبهمو فيها مخالفةٌ قلبى
فقلت : دعوا قلبى وما اختار وارتضى فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحبِّ
وما تبصر العينان فى موضع الهوى ولا تسمع الأذنان الا من القلبِ
وما الحسن الا كل حسنٍ دعا الصبا وألّف بين العشق والعاشقِ الصبِّ

ان الوجدان والشعور والادراك الحسى والحب والمرأة والجمال كل أولئك لغزٌ فهمه بشار وحلله تحليلاً علمياً معقولا.

ومن أغزل ما قال :

زوِّدينا يا عبدُ قبلَ الفراقِ بتلاقٍ ، وكيف لى بالتلاقى ؟!
أنا والله أشتهى سحرَ عينيكِ وأخشى مصارعَ العشاقِ

وقال أيضاً :

أعددت لى عتباً بحبكمو يا عبد طال بحبكم عتبى
ولقد تعرّض لى خيالكمو فى القرط والخلخال والقلب
فشربت غير مباشر حرجاً برضابِ أشنب باردٍ عذبِ

ومن أروع ما قال :

لم يطل ليلى ولكن لم أنمْ ونفى عنى الكرى طيفٌ ألمّ

واذا قلت لها جودى لنا خرجت بالصمت عن لا ونعم
روّحى يا عبد عنى واعلمى أننى يا عبد من لحم ودمْ
ان فى بردىّ جسماً ناحلاً لو توكأتِ عليه لانهدمْ

رحم الله بشاراً على كذبه ، لقد كان ضخم الجثة وادعى انه نحيف القوام ، وكاد يخدعنا بقوله ولم يصدقنا القول . لقد شوهد ان ضخم الجثة من أمثاله تغلب عليه كثرة النوم حتى انه ينام واقفاً ويستغرق فى النوم جالساً ويأكل بشراهة أرزاً مع الملائكة نائماً ! وان ناحل الجسم أخو صبابة حليف سهاد ، ولو لم يقل بشار هذا لصدقناه ولكن يقولون أصدق الشعراء كذبه ، فلنطلب له الغفران وهو القائل :

فى حلتى جسم فتى ناحل لو هبت الريح به طاحا !

ولكنه يكاد يخدعنا مرة أخرى وأخشى أن يكون مثله مثل الراعى الكذاب الذى ادعى ان الذئب سيأكله كذباً وميناً ضحكاً على الذقون ، وأخشى ألا يصدقه الناس بعد الآن فقد بعث اليه المهدى وأمره أن يقول فى الحب شعراً مقتضباً وان يقيم الحب قاضياً بين المحبين فقال :

اجعل الحب بين حبى وبينى قاضياً ، اننى به اليوم راضِ
فاجتمعنا فقلت : يا حبّ نفسى ان عينى قليلة الاغماضِ
أنت عذبتنى وأنحلت جسمى فارحم اليومَ دائم الأمراضِ
قال لى : لا يحلّ حكمى عليها أنت أولى بالسقم والاعراضِ
قلت لما أجابنى بهواها : شمل الجور فى الهوى كل قاضِ !

يا ويح بشار السفسطائى ، بشار العاشق بأذنيه لا بقلبه ، بشار الراغب عن اطراء هذه الغادة الراغب فى مدح تلك ، الحائم حول الغوانى حومان النحلة على الأزاهر ! لماذا انتقل سريعاً من التشبيب فى عبدة الى ذكر سُعدى إذ يقول :

لقد كاد ما أخفى من الوجد والهوى يكون جوى بين الجوانح أو خبلا
إذا قال مهلاً ذو القرابة زادنى ولوعاً بذكراها ووجدانها مهلا
فلا يحسب البيض الأوانس أن فى فؤادى سوى سعدى لغانيةٍ فضلا
فأقسم إن كان الهوى غير بالغ بىَ القتل من سعدى لقد جاوز القتلا

فيا صاح خبرني الذي أنت صانع بقاتلتي ظلماً وما طلبت ذحلا
سوى انني في الحب بيني وبينها شددت على أكضام سرٍّ لها قفلا

ومن آياته البينات في وصف جارية مغنية لم يرها ببصره بل عرفها ببصيرته:

وذات دلٍّ كأن البدر صورتها باتت تغني عميد القلب سكرانا:
« ان العيون التي في طرفها حَوَرٌ قتلْنَنا ثم لم يحيين قتلانا ! »
فقلت: أحسنتِ يا سؤالي ويا أملي فأسمعيني جزاك الله إحسانا !
قالت: فهلاَّ فدتك النفس أحسن من هذا لمن كان صب القلب حيرانا
يا قوم اذني لبعض الحيِّ عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا !
فقلت: أحسنت أنت الشمس طالعة أضرمتِ في القلب والأحشاء نيرانا
فأسمعينيَ صوتاً مطرباً هزجاً يزيد صبّاً محبّاً فيك أشجانا
يا ليتني كنت تفاحاً مفلّجة أو كنت من قضُب الريحان ريحانا
حتى اذا وجدت ريحي فأعجبها ونحن في خلوة مثلثِ انسانا
فحرّكت عودها ثم انثنت طرباً تشدو به ثم لا تخفيه كتمانا
أصبحت أطوعَ خلق الله كلهم لأكثر الخلق لي في الحب عصيانا
لو كنت أعلم ان الحب يقتلني أعددت لي قبل أن ألقاك أكفانا
لا يقتل الله مَن دامت مودته والله يقتل أهل الغدر أحيانا

وله في وصف جميلة سوداء:

وغادةٍ سوداء برّاقةٍ كالماء في طِيبٍ وفي لينِ
كأنها صِيغت لمن نالها من عنبر بالمسك معجونِ !

وكان بشار يرتاح الى مجالسة نساء قوم من الأعراب نزلوا بالبصرة وكنَّ يتحدثن اليه وينشدهن أشعاره في الغزل فأخبره أبان بن عبد الحميد ان القوم ارتحلوا فلم يلبث حتى سمع الناس ينشدون شعراً اعتقد ان بشارا قائله وفيه:

دعا بفراق من تهوى أبانُ ففاض الدمع واحترق الجنانُ
كأن شرارة وقعت بقلبي لها في مقلتي ودمي استنانُ

كانت نفس بشار مشربة الفجور وكان غزله اغراء بالفسوق وآية ذلك قوله :

لو كنت تلقين ما نلقى قسمت لنا يوماً نعيش به منكم ونبتهجُ
لا خير فى العيش إن كنا كذا أبداً ما فى التلاقى ولا فى قبلةٍ حرجُ
مَن راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيِّبات الفاتكُ اللهجُ

أليس فى البيت الأخير حثٌّ على الرذيلة وتشجيع على الغواية وايغال فى افساد الأخلاق واغراء بالعودة الى مذاهب السفسطائيين بانتهاب اللذات وترك القانون الخلقى والعرف والعادة ؟

كان بشار يهوى امرأة من أهل البصرة فراسلها فوعدت وعداً عرقوبياً، فعاتبها فاعتذرت عن تخلفها لمرضها ،فكتب اليها :

يا ليلتى تزداد نكرا من حب من أحببت بكرا
حوراء إن نظرت اليك سقتْك بالعينين خمرا
وكأن رجْعَ حديثها قِطَعُ الرياض كُسين زهرا
جنيَّةٌ إنسيةٌ أو بين ذاك أجلّ أمرا
وكفاك أنى لم أحط بشكاة من أحببتُ خُبرا
إلا مقالة زائرٍ نثرت لىَ الأحزان نثرا
متخشّعاً تحت الهوى عشراً وتحت الموت عشرا

زاره مرةً مالك بن دينار وقال له : يا أبا معاذ أتشتم أعراض الناس وتشبّب بنسائهم؟ فقال : لا أعود ، حتى اذا خرج عنه قال فى أثره :

غدا مالك بملاماته علىَّ ، وما بات من باليهْ
فقلت : دع اللوم فى حبها فقبلك أُعْييت عذّاليهْ

لما كثر استهتار نساء البصرة وشبابها بشعر بشار نصحه الكثيرون فلم ينتصح ، فشكوه للمهدى فنهاه وأنذره بالموت فقال :

يا منظرا حسَناً رأيتُ بوجهِ جاريةٍ فديتُهْ
بعثت الىّ تسومنى ثوبَ الشباب وقد طويتهْ
والله رب محمد ما إن غدرت ولا نويتهْ

أمسكتُ عنك وربما عرض البلاء وما ابتغيتُهْ
إن الخليفة قد أبى وإذا أبى شيئاً أبيتهْ
ومخضّب رخص البنان بكى عليَّ وما بكيتهْ
ويشوقنى بيت الحبيب إذا ادكرت وأين بيتهْ
ونهانىَ الملكُ الهمام عن النساء وما عصيتهْ

وقال أيضاً :

قد لامنى فى خليلتى عمرُ واللوم فى غير كنهه ضجرُ
قال :أفق! قلت :لا فقا ل بلى قد شاع للناس منكما الخبرُ
قلت : وإذا شاع ما اعتذارك مما ليس فيه عندهم عذرُ
ماذا عليهم ومالهم خرسوا لو انهم فى عيونهم نظروا
أعشق وحدى ويؤخذون به كالترك تغزو فتؤخذ الخزر
يا عجباً للخلاف يا عجباً بغى الذى لام فى الهوى الحجرُ!
حسبى وحسب الذى كلفت به منى ومنه الحديث والنظرُ
أو عضَّة فى ذراعها ولها فوق ذراعى من عضِّها أثرُ

وبقية القصيدة مملوءة بهجر الحديث .

وله قصيدة بكى لها الوليد بن يزيد حتى مزج كأسه بدمعه ومنها :

أيها الساقيان صُبَّا شرابى واسقيانى من ريق بيضاء رُودِ
ان دائى الظما ، وان دوائى شربة من رضاب ثغر برودِ
نزلت فى السواد من حبة القلب ونالت زيادةَ المستزيدِ
عندها الصبر عن لقائى وعندى زفراتٌ ندَّين قلبَ الحديدِ

علمنا من كل ذلك ان بشاراً كان شاعراً فناناً عبقرياً قصيح اللسان قوى النفس صادق الحس رقيق الوجدان ضارباً بسهم وافر فى جميع أغراض الشعر وفنونه وكان يؤاخذ عليه الهجاء المقذع والأدب المكشوف فى الغزل ؟

مصطفى شعيب

صورة من إقبال

(محمد إقبال شاعر الهند العظيم ، وفيلسوفها المتصوف ، وأحد قادتها وزعمائها الأبرار ، وقد تكلم عنه الدكتور عبد الوهاب عزام فى محاضرة له وترجم طائفة من مقطوعاته الى النثر العربى ، ووجدتنى بعد هذا التعريف مأخوذاً بسمو فكرة الرجل وعظمة نفسه ومبلغ طموحها ، معجباً به يدرس فى انجلترا وألمانيا ثم يعود وهو أشدّ اعتزازاً بشرقيته ، وأبلغ استمساكاً بقوميته ، وأنفذ زراية بالغرب فى كثير من مدنيته ، فآثرت أن أنقل الى الشعر العربى بعض هذه المقطوعات ، محافظاً طوق جهدى على حرفية الأصل ، وقد أُتيحت لى أخيراً هذه الفرصة وما أحسب أن شاعراً عربياً أحق بالاستقصاء والدراسة من شاعر شرقى كإقبال .

وهذه القطعة التى سأوردها هى من مقدمة كتابه « أسرار خودى » أو « سر الذات » ، وأرى أنها من أقدر نفثاته على التعريف به وعلى تصوير عالم خواطره وكشف خفايا نفسه ، ولانها تكاد تكون فى مقاصد ثلاثة مستقلة أجريت كل مقصد منها فى مجرى شعرى أكثر التئاماً مع روحه واتساقاً مع مذهبه ، وأرجو أن أكون قد وفقت الى حد فى هذه المحاولة)

(١)

أنهتْ الشمسُ طريق الليل فى غَيْب الوجودْ
وبكأس ينثر الما ءَ على خدّ الوُرودْ
تغسلُ النومَ دُموعى عن عيون النرجسِ
وعلى عَزْفَ قام الر وضُ من نومٍ قَسى !
خَبرَ الزرّاع تأثيرَ كلامى فجنَى من غرس مِصراع حُسامَا
وذَرا فى المرج حبّاتِ دُموعى ناسجاً روحى مع الزهر مَرامَا !
طَيّبتى أضوأُ بى من « جام جَمْ » (١)
تستنيرُ ما استجدّ واستجمّ

---

(١) كأس خرافى كان لجمشيد

صدتُ بالفكر الظّبا من العدمْ
وهى شىءٌ لم يكن ، ولم يُرَمْ
زينَ بُستانى بخُضرةٍ ، ولم
يُنْبتِ الخضرةَ فى الدنيا أجمْ

إن فى حجرى وُرودٌ لم تزلْ فى ضمير الغصن وهماً وغراما
أنا هجتُ من غنائى محفلا يذرع الانشادَ بَدْءاً وختاما

قد نحتُ وترى وعُدّتى
من عروق العالم الحيّةِ
كم صمتُ قبل عَوْد فطرتى
ثم لم يدْرِ جليسى نغمتى
أنا فى العالم شمسُ جدّةٍ
لم أرَ الدهرَ رسومَ دَوْرتى

لا ، ولم يرقُصْ شهابٌ قط فى ضَوْء وجهى ، إنه كان حراما
حيثُ لمّا يضطربْ ضوئى على صفحةِ البحرِ ، ولم يدْرِ الغماما

أنا نغمةٌ ، ولكن لا أبالى قط عُودْ
انى لشاعر الغد غناء ونشيدْ

« • »

إنّ عصرى ليس يدرى السرَّ فى طريقهِ
إن يوسُفى المُعَنى : لم يكن فى سوقهِ

« • »

أنا يائسٌ ، ولكن من صِحابى القدماءْ
ها هو « الطور » تجلى ، كى تُناجينى السّماءْ

« • »

بحرُ أصحابيَ ساجٍ ، هو قطرةٌ تضيءْ
حينما قَطرتيَ البحر ، بطوفانٍ يَجيءْ

« • »

ان نغمتي في عالم ، وليستْ هي لهْ
ان اجترامي لغير أهل تلك القافلهْ

« • »

كم رأينا شاعراً ، قد تحدّى الذكرُ حَيْنَهْ
قد أثار عيننَا ، بعد ما أغمض عيْنَهْ

« • »

يولد الشاعرُ بعد أن يموت من جديدْ
نابتاً فوق ترابِ قبره نبتَ الوُرودْ

(٢)

إن تكنْ هذه القوافلُ تَسْعَى خَافتاتٍ على الصحارَى عَوانِي
فأنا عاشقٌ : أصيحُ بشعري طوق جهدي ، فانه إيماني !
ثورةُ المحشر الرّهيبة طَوْعي فاستمعْ نَغْمَتي وشيْبَ حناني
ما لِعودٍ هنا بضربيَ طَوْق لا أبالي بكسر عُودِ عصاني !
لا يعي مُهْدِرُ البحار مياهي ما لبحرٍ بما أسوق يدانِ
ليس للبرعم الحقير ، ولما يُضح روضاً ، بأن يرى تهتاني
أي برق ينام في طي رُوحي ؟ كم بُروقٍ بخاطري وجناني !
كلُّ صحراءَ في الفيافي أناختْ فهي بابٌ لمبتدا جَوَلاني
إن تكن أنت كالصحارى جَديباً فانحُ بحري ، وسِرْ الى فيضاني
أو تكن مثل « طورِ سيناء » قدساً ذاك برقي ، فقم له ، وأذاني !

إن ماءَ الحياة مِنحةُ نفسى ... إننى كعبةٌ لسرّ المعانى
هذه الذروةُ الحقيرةُ هبّتْ ... حيّةً من عنائىَ النشوانِ
ثم شقّت جناحها فإذاها ... مِن يَرَاعِ المساء ذى الألوانِ (١)
لم يُحدّثْ بما أحدّث يوماً ... كائنٌ ما بهذه الأكوانِ
بل ولمّا يَثِبْ لدُرّ المعانى ... ثاقبٌ ما كفكرتى ولسانى
إن تُرد عيشةَ الخلودِ فأقبلْ ... أو لك السرّ فى سديد بيانى
موحِيَ السرّ فى السماء تَدَلَّى ... بالذى صُغْت من جديد المثانى
كيف أخفى على ندامای سِرى ؟ ... خُنتُ عهدى إذن مع الندمانِ !
ساقىَ القوم من دنانك أقبل ... واملأ الكأس من عتيق الدنانِ
وامْحِ هذا العراكَ عن سطح قلبى ... ليس كالخمر فى نزال الزمانِ !
خمرة الماء ماء « زمزم » منها ... شعلةٌ تفمر الفتى بالمعانى
ترتقى بالعيون فى البُعد حتى ... فوق ما تدرك العيون الدوانى
انها تمنح الحصاةَ على الأر ... ض جلالَ الجبالِ والوديانِ
تمنح الثعلب العييّ قُوَى السبع ، وتحبو الترابَ أعلى مكانِ
وهى تُضفى على السكون هياجاً ... كاصطخابِ للحشرِ فى ميدانِ !
هاتها خمرةً ، وصُبّ على ليل جنانى ضياء بدرٍ وثانِ
هاتها أرشد العميدَ الى الدا ... ر وأهدى ضلالة الحَيْرَانِ
أمنح الناظرين من متع الحُر ... قة قسطاً ، ومن شكوك العيانِ

« • »

قم فرتّل « لمرشد الروم » آياً ... من كتاب العلوم عذب المجانى (٢)
خاتم السر فى الحياة ، وثار ... أنا منها الضياء للانسانِ !

---

(١) اليراع جمع يراعة وهى طويّر ليلىّ كالذباب (٢) جلال الدين الرومى الذى ينسج الشاعر على منواله فى التصوف ويستقى من فلسفته .

انه قلّب التراب الى غَيبي ، وصاغ الغُبار حتى يرانى
فانا ذرّةٌ لِرمل الصحارى تنهبُ الجوّ فى اقتضاء الأمانى
تبتغى الحكم فى شعاع « ذكاءٍ » إن إبّان صيده إبّانى
أنا موجٌ أقيمَ فى البحر كيما يظفر الموجُ بالدرارى الحسانِ
أتملتنى خمور كرْمٍ « جلالٍ » بل بأنفاسه حييتُ زمانى

(٣)

وفى ليلة زادت همومى ولم أزل أفكر فى نفسى حزيناً مُسَهّدَا
رأيت « جلال الدين » عندى مسامراً يحدّثنى سمحاً حديثاً مخلدا
يقول: « إلامَ الصمت ؟ قم فانشد الشذا ولا تك كالكمّ الذى لم يرَ الندا
نواحك هذا الصامتُ الدهر فليكن صليلا من الأعضاء يُزجى مجدّدا
وانك نارٌ ، فاغمر الحفل بالضيا وأحرق دعاة الجهل ، واحفر لهم كدا
وانك نايٌ ، قم فأبلغ رسالةَ عن الغاب ، وانشرها غناءً مُردَّدا
وحدّث بليلى ، صبّها وانفح الورى بصيحتك الرُّوح النشيط المؤيدا
ودونك فاسلك غير هذى طريقة وسُقْ بالذى أغرمْت قدماً الى الردى
وأدرك لذاذات المقال ، وقم على صليل نواقيس السفار ، على الحُداء
فقمت نزعتُ الحجْبَ عن وجه فطرتى وعن سرّ ذاتى أكشف اليوم والغدا
فأدركت من اعجازها السرَّ عند ما بدت لىَ نفسى بعدُ نقصاً مجرّدا
وأنحى علىّ العشقُ صقلا بمبردٍ له فى يدٍ ما تجتلى عندها يدا
وعندئذ ألفيتُنى جِدَّ كائنٍ محيطٍ بما غاب اكتناهاً وما بدَا
لعمرى لكم بكّرْت ليلا ، وليس لى أبكّر ، بل للناس أبغى لهم هُدى
الى أن هتكت السر عن مر دهرهم وأدركت تقويماً لهم كان مُبْعَدا
وأبرزت هذا الليل فى زينة السها وبهجةِ بدر التمّ نوراً ومحتدا
وانى على هذا لأقدام أمّتى تُرابٌ ، ولا فخر ، انتهاءً ومَوْلدا

تراب لها من أمة رَجْع شدوها ... مَلِئ به روْضٌ ومَرْج ومنتدى
لقد زرعت زرعاً، وضمت حَصادَه ... شموساً مئاتٍ من مُرْجَّى ومقتدى
أنا آهةٌ أسمو الى ما ورا السما ... دخان ولكن أصطلى الجذل موقدا
وقد لا ينى عشقى لهيباً معانقاً ... على أنّ لى من حكمتى هدأةَ الندى

محمد كى ابراهيم

حياة الشاعر

غداً يا خيالى تنتهى ضحكاتنا ... وآلامنا تفنى وتفنى المشاعرُ
وتسلمنا أيدى الحياة إلى البِلى ... ويحكم فينا الموتُ والموتُ جائرُ

جلست على الصخر الوحيد وحيدا ... وأرسلت طرفى فى الفضاء شريدا
وكفكفت دمعاً . . لا بكفكف غربه ... وواسيت قلباً فى الضلوع عميدا
أرى صفحة الآمال قد ضاق أفقها ... ولاح على اليأس البعيد مديدا
لقد عشتُ فى دنيا الخيال معذّباً ... فياليت شعرى هل أموت سعيدا ؟ !

كان حياتى غنوة بدويّة ... شَدَتها الليالى للقرون بلا مَعنى
كأنى أنا فيها شجَى نغماتها ... أقامت لها ذكرى تحفّ بها الأذنا !
لئن فاتنى عهد الشباب ولهوه ... فانى بعمرى لست آبهُ أو أعنى